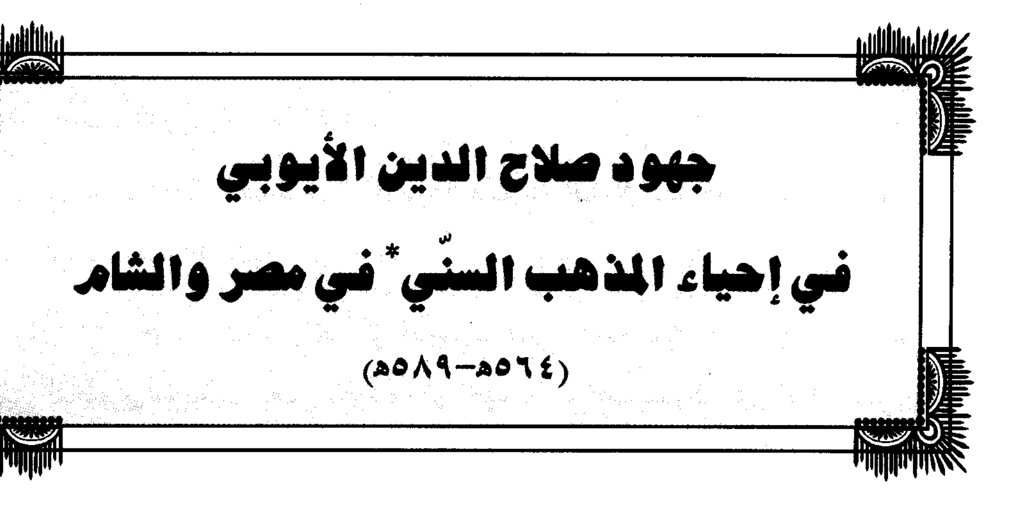


جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السنّي* في مصر والشام

(٥٦٤هـ-٥٨٩هـ)

محمد الرحيّل غرايبة

قسم الشريعة، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن

مقدمة

لما كانت الأبحاث والدراسات حول صلاح الدين الأيوبي (ت:٥٨٩هـ) كثيرة ومتنوعة. رأيت أن أبحث عن موضوع، لم يتناوله الباحثون، أو لم يوفوه حقه من البحث والتمحيص.

وبما أن الجانب العسكري لديه، قد أُشبع بحثاً باعتباره صانع مجد هذه الأمة خلال فترة الحروب الصليبية، رأيت أن أتجه إلى أحد الجوانب المهمة في حياته.

ولما كان هو الذي أزال الخلافة الفاطمية الشيعية من الوجود نهائياً، وأن المذهب الشيعي في عهده قد وهن وهناً شديداً، بسرعة لافتة للنظر، مما يستدعي الوقوف على

* يقصد المؤلف بالمذهب السنّي المقابل للتشيع والرفض، إذ أن مصطلح السنيّ يقصد به أيضاً مقابل الأشعري والماتريدي وغيره من الفرق التي اختلفت في الأسماء والصفات والقدر والإيمان وغير ذلك [المجلة].

السر الذي يكمن وراء هذا الضعف.

لذلك عمدت إلى الكتابة حول هذا الموضوع، محاولاً سدَّ فجوة في الدراسات التي تناولت سيرة صلاح الدين.

وفي هذا البحث، أشرت بإيجاز إلى الأسباب التي حدت بصلاح الدين إلى أن يشن حملته على الفاطميين، وألقيت بعض الضوء على جهوده السياسية (السلمية) في نشر المذهب السنّي، والتي تمثلت في إكثاره من إنشاء المدارس التي تدرس فقه مذاهب أهل السنّة، وعزله القضاة الشيعيين، واستبدالهم بقضاة سنّيين، واهتمامه بالعلماء والفقهاء وتقريبهم إليه، وقمت بتفنيد التهمة التي نسبت إليه، بأنه كان سبباً في جمود الفكر الإسلامي بقتله الفيلسوف يحيى السُهروردي (ت:٥٨٧هـ)، وأومأت بإيجاز إلى أثره في تنشيط المذهب السنّي في حاضرة الخلافة العباسية.

وجاءت الدراسة موزعة في مجموعة مباحث هي:

١. أسباب محاربة المذهب الشيعي.

٢. المدارس التي أنشئت في عهد صلاح الدين.

٣. القضاء.

٤. الاهتمام بالفقهاء.

٥. بغض صلاح الدين للفلسفة.

٦. دور صلاح الدين في تنشيط المذهب السنّي في بغداد.

بالإضافة إلى خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ولا أزعم أن هذا البحث جاء كاملاً خالياً من الهفوات والنقص، فالكمال لله وحده.

وأسأل الله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم.

أسباب محاربة المذهب الشيعي:

عمل الخلفاء الفاطميون ودعاتهم في مصر والبلاد التي حكموها، بشكل نشيط على نشر المذهب الشيعي، عن طريق بذل الأموال، وجعل القضاء على مذهبهم الذي يدينون به، لذلك نهض المذهب الشيعي نهضة كبيرة، وبالمقابل فقد ضعف نفوذ المذهب السنّي، الذي كان سائداً في مصر وغيرها من البلاد التي خضعت للفاطميين.

ولما اعتلى صلاح الدين كرسي الحكم في مصر، سرعان ما عمل على إنهاء الخلافة الفاطمية، «وبذلك عادت إلى مصر السلطة الروحية للخليفة العباسي»[1]، كما عمل على تقوية المذهب السنّي ومحاربة المذهب الشيعي، المذهب الرسمي للفاطميين، مستعملاً في ذلك أساليب متنوعة، منها ما هو عسكري، ومنها ما هو سياسي.

أما أسلوبه العسكري فتمثل في قمعه للحركات وللمؤامرات التي استهدفت القضاء عليه وعلى أنصاره، وإعادة الخلافة الفاطمية، مثل: حركة مؤتمن الخلافة[2]، ومؤامرة

---

(١) نيكيتا إيليسف، «الشرق الإسلامي في العصر الوسيط»، ترجمة منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، (١٩٨٦م):(ص٢٧٣).

(٢) كان أكبر شخصيات القصر الفاطمي، ولما رآى خطورة صلاح الدين، عمل على تدبير مؤامرة للقضاء عليه، وكان ذلك في بداية تولي صلاح الدين للوزارة، ولكن صلاح الدين علم بذلك، فتمكن من قتله، ولما ثار أتباعه سنة (٥٦٤هـ)، قاتلهم صلاح الدين، وتمكن من الانتصار عليهم بعد معركة ضارية، ومنذ تلك اللحظة ضعف نفوذ الخليفة الفاطمي، ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، «الكامل في التاريخ»، (١٢م)، دار صادر، بيروت، (١٩٧٩)، (٣٤٥/١١-٣٤٦).

عمارة اليمني[1]، وثورة الكنز[2].

وأمّا أساليب صلاح الدين السياسية (السلمية) في محاربة التشيع، فتمثّلت في أنه اتجه إلى عقول الناس، فعمل على إنشاء المدارس الفقهية التي تدرس مذاهب أهل السنّة، ولا سيما المذهب الشافعي، وجعل القضاء على المذهب السنّي، واهتم اهتماماً كبيراً بالفقهاء.

لماذا قام صلاح الدين بمحاربة المذهب الشيعي ؟

يمكننا إرجاع إقدام صلاح الدين على محاربة المذهب الشيعي إلى الأسباب التالية:

١. أنه وجد في الشيعة منافساً قوياً له، حيث أعلنوا مراراً مطالبتهم وأحقيتهم بالحكم من صلاح الدين لكونه كُرديّاً من ناحية، وأنه ليس عربياً مصرياً من ناحية أخرى، ومن ناحية ثالثة فهو لا يدين بمذهبهم، وسبق أن أشرنا إلى أهم الحركات التي قاموا بها ضده.

٢. إن صلاح الدين عدّ نفسه حامي الخلافة العباسية والمدافع عنها، لذلك أعطى نفسه الحق في قمع حركات الشيعة بشدة، حيث عدّهم خارجين وبعيدين عن مذهب

(١) وضع رؤوس هذه المؤامرة خطة محكمة، استهدفت القضاء على صلاح الدين، وإعادة الخلافة الفاطمية، ولكي يتمكنوا من إنجاح مخططهم تآمروا مع الصليبيين، ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة، فقبض على مدبريها وقتلهم، وكان ذلك في سنة (٥٦٩هـ)، ويرجع الفضل في كشف هذه المؤامرة إلى الفقيه ابن نجا، جمال الدين محمد بن واصل (ت٦٩٧هـ)، «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، تحقيق جمال الدين محمد الشيال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، (١٩٥٣م): (٢٤٣/١-٢٤٦).

(٢) كان كنز الدولة والياً على أسوان، فقام ببسط سيطرته على أغلب صعيد مصر، وأعلن تمرده على صلاح الدين، ونادى بإرجاع الخلافة الفاطمية، وكان ذلك في سنة (٥٦٩هـ)، ولكن هذه الثورة قمعت بشدة على يد الجيش الذي أرسله صلاح الدين بقيادة أخيه العادل، «مفرج الكروب»: (١٦/١-١٧).

الخلافة العباسية عقيدةً وفقهاً، فقد أرسل الخليفة العباسي المستنجد (ت:٥٦٦هـ) إلى نور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) -سيد صلاح الدين- أن يُسقط الخلافة الفاطمية، الذي قام بدوره بالكتابة إلى صلاح الدين يأمره أن يُنهي الخلافة الفاطمية[١]، ويرجع مصر إلى حضيرة الخلافة العباسية، فقام صلاح الدين بالقضاء على الخلافة الفاطمية ومذهبها.

٣. ثبت وبشكل قاطع تحالف بعض الخلفاء الفاطميين ووزرائهم مع الصليبيين[٢]، ضد صلاح الدين، ومن قبله ضد نور الدين محمود، لذلك وجد فيهم عقبة كأداء في سبيل تحرير الأراضي الإسلامية التي اغتصبها الصليبيون.

وفيما يلي نعرض بإيجاز لأساليب صلاح الدين السلمية التي اتبعها في سبيل محاربة المذهب الشيعي:

المدارس:

لم يعرف العالم الإسلامي المدرسة قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانت أول مدرسة بنيت في ديار الإسلام هي المدرسة **البيهقية** في نيسابور، ثم المدرسة **النظامية** في بغداد، ثم أخذت المدارس تنتشر في العراق وخراسان وغيرها من البلدان الإسلامية[٣].

وعندما ملك صلاح الدين مصر، «لم يكن بها شيء من المدارس»[٤]، فقام ببناء عدة

---

(١) عبد الرحمن إسماعيل أبو شامة، (ت٦٦٥هـ) «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، تحقيق محمد حلمي أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٥٦م): (٤٦٥/٢/١).

(٢) حسن إبراهيم حسن، «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي»، (٤م، ط١)، دار الأندلس، بيروت (١٩٦٧م): (١٨٩/٤-١٩٢).

(٣) أحمد بن علي المقريزي، (ت٨٤٥هـ)، «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (الخطط المقريزية)، (ط٢) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (١٩٨٧م): (٣٦٣/٢).

(٤) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة»: (٥٤/٦).

مدارس للشافعية والمالكية، مقتدياً بالملك العادل نور الدين محمود زنكي، الذي بنى عدة مدارس للحنفية والشافعية[1]، وقد تأسى بصلاح الدين في إقامة المدارس في مصر والشام أقرباؤه والأغنياء من الفقهاء وغيرهم.

وقد مهّدت هذه المدارس الطريق أمام طلاب العلم لينهلوا من معين العلوم الشرعية والعربية وغيرها بأيسر جهد، وأقصر وقت، وأقل التكاليف، وأصبح طالب العلم غير محتاج إلى أن ينتقل من بلد إلى آخر يبحث عن المدرسين، بل صار المدرسون هم الذين يأتون إليه في المدرسة.

وقد جعلت هذه المدارس من عهد صلاح الدين عهداً مشرقاً سواء في مصر أو بلاد الشام، إذ أصبحا محور استقطاب العلماء من جميع البلدان الإسلامية، لما كان يلاقيه الفقهاء من كريم العناية والرعاية، ولما كان يغدقه صلاح الدين عليهم من أعطيات ومنح كثيرة، فقد بلغت المرتبات للفقهاء والمدرسين بدمشق في عهده حوالي ثلاثمائة ألف دينارٍ، وكان عددهم حوالي ستمائة مدرس وفقيه[2].

ولكي يضمن صلاح الدين دخلاً ثابتاً للمدارس التي يُنشئها، كان يوقف عليها أوقافاً تكفي للإنفاق على الفقهاء (المدرسين) والدارسين[3]. كما هُيّئت لهذه المدارس كل أسباب الراحة ووسائل العيش، ليتفرغ الدارسون والمدرسون تفرغاً كاملاً للعلم.

وقد هدف صلاح الدين من إنشاء المدارس التي شيّدها إلى مقاومة المذهب الشيعي، عن

---

(١) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٣٦٣/٢).

(٢) نعمان الطيب سليمان، «منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة»، (ط١)، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، (١٩٩١م) (ص٤٢٨)، نقلاً عن خطط الشام: (٣٩/٤).

(٣) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة»، (٦م)، المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة: (٥٤/٦).

طريق تعليم فقه أهل السنّة، ولا سيما مذهبه الذي كان يعتقده وهو المذهب الشافعي، بالإضافة إلى أنها كانت مراكز لتثقيف الناس وتعليمهم لغتهم وأمور دينهم، وتبصيرهم بما يُحيق بهم من مخاطر تهدد وجودهم، فعملت على إثارة روح الجهاد في الناس، مما جعلهم يلتفّون حول زعيمهم، مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين، حيث تمكن من فتح أغلب معاقل الصليبيين التي كانت منغرسة في بلاد الشام.

والمدارس التي بناها صلاح الدين في مصر هي:

المدرسة الناصرية: بناها صلاح الدين في مصر (الفسطاط) سنة (٥٦٦هـ) مكان سجن المعونة، وكان في ذلك الوقت وزيراً، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي[١].

المدرسة القمحية: بناها صلاح الدين في أثناء وزارته، وجعل الدراسة فيها على المذهب المالكي[٢].

المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين بعد أن انفرد بحكم مصر، بجوار قبر الشافعي بالقرافة، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، وأول من دّرس بها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني (ت:٥٨٧هـ)[٣]، وجعل له في كل شهر أربعين ديناراً عن التدريس، وعشرة دنانير عن النظر في أوقاف المدرسة، ورتّب له من الخبز في كل يوم ووقف ستين رطلاً، ورواتين من ماء النيل، ووقف عليها حمّاماً بجوارها، وحوانيت بظاهرها، وجعل فيها معيدين[٤].

---

(١) أبو شامة، «الروضتين»: (٤٨٦/١/١).

(٢) المقريزي، «الخطط»: (٣٦٤/٢)، وابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة»: (٣٨٥/٥).

(٣) أبو شامة، «الروضتين»: (٦٨٨/٢/١).

(٤) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٤٠٠/٢).

المدرسة السيفية: أسسها صلاح الدين بعد أن أصبح ملكاً لمصر، وجعل التدريس فيها على المذهب الحنفي، وعيّن للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجيني، ورتّب له في كل شهر أحد عشر ديناراً، وباقي ريع وقفها، يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده، على قدر طبقاتهم[1].

أما المدارس التي بناها في بلاد الشام أو أمر بتجديد عمارتها فهي:

المدرسة الصلاحية: بناها صلاح الدين في دمشق، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي[2].

المدرسة الكلاّسة: بنيت في زمن نور الدين محمود زنكي، وأمر صلاح الدين بتجديد عمارتها سنة (٥٧٥هـ)[3].

المدرسة الغزالية: أُسست في عهد نور الدين محمود زنكي، واهتم صلاح الدين بإصلاحها، وجعل قرية (حزم) من أعمال حوران وقفاً عليها، وعلى المشتغلين بها من العلوم الشرعية، وجعل النظر والتدريس فيها لقطب الدين مسعود النيسابوري الشافعي (ت:٥٧٨هـ)[4].

وفي سنة (٥٧٦هـ) أمر ببناء مدرسة في الإسكندرية، خلال زيارته لها[5]، كما أمر ببناء مدرسة كبيرة في الموصل[6].

---

(١) المصدر نفسه: (ص٣٦٥).

(٢) عبد القادر بن محمد النعيمي، (ت٩٢٧هـ)، «الدارس في تاريخ المدارس» (٢م)، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق (١٩٤٨م): (٣٣١/١).

(٣) المصدر نفسه: (٤٤٨/١).

(٤) نعمان الطيب سليمان، «منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة»: (ص٤٢٨).

(٥) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٢٣٤/٢).

(٦) أبو شامة، «الروضتين»: (٦٩٤/٢/١).

المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين في مدينة القدس سنة (٥٨٨هـ) وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، وجعلها وقفاً على أهل العلم[١]، ولغاية الآن يوجد كتاب وقفها منقوشاً على حجر كبير ووضع على باب المدرسة، ونصها كالآتي:

((بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، أبو المظفّر يوسف بن أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المؤمنين، أعزّ الله أنصاره، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة، على الفقهاء من أصحاب أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة))[٢].

وهذه المدارس التي شيد صرحها صلاح الدين، لا نجد شيئاً منها منسوباً إليه في الظاهر، وإنما تنسب لجهات أخرى، : كأن تنسب إلى الفقيه الذي درس بها، أو إلى المكان الذي توجد فيه، أو غير ذلك، وهذا كما يقول ابن تغري بردي: ((صدقة السّر على الحقيقة))[٣].

مدرسة دار الغزل: جعلها صلاح الدين للمالكية، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[٤].

وإلى جانب المدارس، شيّد صلاح الدين أيضاً الجوامع الكثيرة والخانقات[٥] الصوفية، ولا يخفى أن هذه الأمكنة كان ويعقد فيها حلقات دروس في الفقه ومختلف العلوم

---

(١) ابن واصل، ((مفرج الكروب)): (١/٢٣٠) وعارف العارف، ((المفصّل في تاريخ القدس))، مكتبة الأندلس، القدس، (١٩٦١م): (١/١٧٩).

(٢) عارف العارف، ((المفصّل في تاريخ القدس)): (١/١٨٠).

(٣) ابن تغري بردي، ((النجوم الزاهرة)): (٦/٥٤).

(٤) ابن واصل، ((مفرج الكروب)): (١/١٩٨).

(٥) الخانقات جمع خانقاه: كلمة فارسية (خانكاه)، ومعناها بيت، ثم جعلت علماً على المكان الذي يتخلى فيه الصوفية لعبادة الله تعالى، والفرق بينها وبين الرباط: أن الرباط لفقراء الصوفية أما الخانقاه فهو على شكل مدرسة يُعيّن لها شيخ ومدرسون فلا يدخلها إلا من قُبل فيها، انظر ((الخطط)) (٢/٤١٤)، ((منادمة الأطلال)) (ص٢٧٢)، [المجلة].

الشرعية.

ومن المدارس التي أُسست في عهده والتي بناها غيره من أفراد الشعب نذكر:

المدرسة الإقبالية: أنشأها خادم صلاح الدين جمال الدين بن جمال الدولة، وقسمها إلى قسمين أحدهما للشافعية والآخر للحنفية[1].

مدرسة منازل العز: كانت في الأصل داراً تابعة للقصر الفاطمي في القاهرة، اشتراها الأمير تقي الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، وجعلها مدرسة للشافعية سنة (٥٧٤هـ)[2]، كما بنى هذا الأمير في دمشق المدرسة **التقوية**[3]، وأنشأ مدرستين بالفيوم للشافعية والمالكية كما بنى مدرسة فخمة في حماة[4].

المدرسة العادلية: عمّرها أخو صلاح الدين العادل أبو بكر أيوب، في القاهرة[5]، وكان بناؤها متقناً محكماً لا نظير له في بنيان المدارس[6].

المدرسة الشامية: بنتها أخت صلاح الدين ست الشام في دمشق، وهي من مدارس الشافعية[7].

مدرسة الصاحبة: بنتها ربيعة خاتون في دمشق للحنابلة[8].

(١) النعيمي، «الدارس في تاريخ المدارس»: (١٥٨/١).

(٢) أبو شامة، «الروضتين»: (٤٨٧/١/١).

(٣) عبد القادر النعيمي، «الدارس في تاريخ المدارس»: (٢١٦/١).

(٤) أبو شامة، «الروضتين»: (٤٨٧/١/١).

(٥) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٢٦٥/٢).

(٦) أبو شامة، «الروضتين»، (٥٤٥/٢/١).

(٧) المصدر نفسه، (١١٤/٢).

(٨) نعمان الطيب سليمان، «منهج صلاح الدين في الحكم»: (ص٤٣٠).

المدرسة الأزكشية: بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي، أحد أمراء صلاح الدين وجعلها وقفاً على الفقهاء من الحنفية[1].

المدرسة العاشورية: كانت داراً لليهودي ابن جميع الطبيب كاتب الأمير بهاء الدين قراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة الأمير أيازكوج الأسدي، ووقفتها على الحنفية، وكانت من الدور الحسنة[2].

المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (ت:٥٩٦هـ) سنة (٥٨٠هـ) ووقفها على الشافعية والمالكية، ووقف بها ما يقارب مائة ألف كتاب[3].

المدرسة العصرونية: أنشأها قاضي القضاة الفقيه شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون (ت:٥٨٥هـ)[4].

المدرسة القُطبية: بناها قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدباني في سنة (٥٧٠هـ)، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية[5].

بناها التاجر عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوقي (ت:٥٩٣هـ) في سنة (٥٧٠هـ)[6].

والملاحظ في عهد صلاح الدين الأيوبي، أن الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميون ليكون مركزاً لنشر عقائد الشيعة، لم يعد يحتل المرتبة الأولى بين مراكز العلم، بل أصبح في المرتبة

---

(١) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٣٦٧/٢).

(٢) المصدر نفسه: (ص٣٦٨).

(٣) المصدر نفسه: (ص٣٦٦).

(٤) عبد القادر النعيمي، «الدارس في تاريخ المدارس»: (٣٩٩/١).

(٥) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٣٦٧/٢)

(٦) المصدر نفسه: (ص٣٦٧).

الثانية من الأهمية[1]، ويرجع ذلك إلى المدارس الكثيرة التي أحدثها صلاح الدين، ثم إلى نقله خطبة الجمعة من الأزهر إلى الجامع الحاكمي، وبقيت الخطبة معطلة بالجامع الأزهر إلى عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (ت:٦٧٦هـ)[2].

ولا شك في أن هذا العدد الهائل من المدارس، خلال المدة البسيطة التي حكم بها صلاح الدين والتي تقارب العشرين عاماً، إن دلّ على شيء فإنما يدل على اهتمامه الكبير بالعلم والعلماء، وليس غريباً عليه أن يصدر عنه هذا الاهتمام، إذا عرفنا أنه كان فقيهاً في المذهب الشافعي «فكان يحفظ القرآن، وكتاب التنبيه في الفقه الشافعي»[3]، وكان يكثر من مجالسة العلماء، والاستماع إليهم، ومناقشتهم، كما سيتضح لنا فيما بعد.

وتجدر الإشارة، إلى أن اهتمام صلاح الدين بإنشاء الخانقات الصوفية بكثرة، يؤكد لنا ما ذكرته بعض المصادر التاريخية: أن صلاح الدين كان عنده نزعة صوفية، يقول السيوطي: «ذكر اليافعي في روض الرياحين، أن السلطان صلاح الدين كان من الأولياء الثلاثمائة»[4]، كما أن المصادر التاريخية تجمع على أنه كان زاهداً.

وصلاح الدين بتشييده صروح العلم، أضاف إلى سجله الحافل بالانتصارات العسكرية على أعداء الإسلام، سجلاً آخر لا يقل أهمية عن السجل الأول، خلّد ذكراه وهو بعث المذهب السنّي من جديد في مصر والشام والحجاز، بل وفي العراق، بعد أن كان من المحتمل أن يتلاشى، لو قدر للدولة الفاطمية أن يُمدّ في عمرها.

---

(١) حسن إبراهيم، «تاريخ الإسلام»: (٦٠٨/٤).

(٢) وفاء محمد علي، «قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام»، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة (١٩٨٦م): (ص٥٦).

(٣) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ)، «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (٤م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت : (٢٩٨/٤).

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»، (٢م) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (١٩٦٨م): (٢٢/٤).

إن صلاح الدين في إنشائه المدارس، لم يفرق بين مذهب وآخر، ولا بين الفقهاء، بل أنشأ مدارس لجميع المذاهب السنّية، وبذلك عمل على استبعاد العصبيات المذهبية، وأشاد سياسة تقوم على استقطاب جميع أهل السنّة من أجل صُنع جبهة موحدة، ليقوى بها على محاربة أعدائه.

القضاء:

منذ اللحظة الأولى لتسلم صلاح الدين الوزارة في مصر، كان في نيته القضاء على الخلافة الفاطمية، وإحلال مذهب أهل السنّة مكان المذهب الشيعي، فكان أول عمل قام به هو «تحسين موقع الإسلام السنّي»،[1] وذلك بعزل جميع القضاة الشيعيين من مناصبهم، واستبدالهم بقضاة سنّيين، من أتباع المذهب الشافعي[2].

فقام سنة (٥٦٦هـ) بإسناد قضاء مصر إلى الفقيه الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي (ت:٦٠٥هـ)[3]، وعهد إليه باستنابة قضاة عنه في البلدان المصرية، يدل ذلك على أنه كان بمنزلة قاضي قضاة، ولا شك أن تنصيب قاضي قضاة سُنّي، مع وجود الخليفة الفاطمي «إجراء له دلالته السياسية الواضحة»[4].

وقد قام ابن درباس بتنفيذ ما أسند إليه من مهام وأثبت جدارة في عمله، فقام بنقل خطبة الجمعة من الأزهر إلى المسجد الحاكمي، كما قام بإسناد مناصب القضاء في المدن المصرية إلى فقهاء من الشافعية أسهموا بدورهم في نشر المذهب الشافعي، وبذلك «استعاد

---

(١) ملكوم ليونز، صلاح الدين، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، (١٩٨٨م): (ص٦١).

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، «العبر في خبر من غبر»، (٤م)، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٥م): (١١٢/٣).

(٣) ابن واصل، «مفرج الكروب»: (١٩٨/١).

(٤) ابن واصل، «مفرج الكروب»: (١٩٨/١).

المذهب السنّي قوته»، وأدّى ذلك إلى ضعف المذهب الشيعي، وأخذ نجمه بالأفول عن سماء مصر حتى وقتنا الحاضر.

وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة (٥٧٠هـ)، بعد وفاة نور الدين زنكي، أبقى على قضائها كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري (ت:٥٧٢هـ)، رغم ما كان بينهما من عداوة، عندما كان صلاح الدين في دمشق، قبل قدومه إلى مصر، وبعد وفاة الشهرزوري، أسند صلاح الدين قضاء دمشق إلى الفقيه شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون (ت:٥٨٥هـ)[١].

وكان صلاح الدين كلما فتح بلداً يولي عليه قاضياً من أتباع المذهب الشافعي، وآخر من عين من القضاة قبل موته، هو القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي، الذي عينه قاضياً على مدينة القدس وكان ذلك في سنة (٥٨٨هـ)[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين، قد جعل قضاة مهمتهم، النظر في المنازعات والخصومات التي تقع بين أفراد الجيش، وأُطلق عليهم قضاة الجند أو قضاة العسكر، ومن أشهر هؤلاء القضاة، القاضي بهاء الدين بن شدّاد، والقاضي شمس الدين محمد بن موسى، المعروف بابن الفرّاش[٣].

ولاهتمامه بمذاهب أهل السنّة، ولا سيما المذهب الشافعي، جعل القضاة والمدرسين في المدارس ممن يتبعونه، فلا غرابة إذن، أن يشيع المذهب الشافعي، وتصبح له الصدارة بين بقية مذاهب أهل السنّة، وأدى ذلك إلى انحطاط منزلة المذهب الشيعي واندراسه، وانمحاء

---

(١) أبو شامة، «الروضتين»: (٦٧٣/٢/١).

(٢) عارف العارف، «المفصّل في تاريخ القدس»: (١٧٨/١)، وأبو شامة، «الروضتين»: (٢٠٦/١).

(٣) نعمان الطيب سليمان، «منهج صلاح الدين في الحكم»: (ص٤٦٢).

أثره، ولم يجرؤ أحد من أهل البلاد على إعلان تشيّعه[1].

وصلاح الدين بجعله القضاء على المذهب الشافعي بدل المذهب الشيعي يعتبر عمله هذا «كمن قام بانقلاب سريع لإجراء تغيير مذهبي، ولكنه لم يكن عنيفاً أو دموياً».[2]

الاهتمام بالفقهاء:

القائد الناجح لا يقتصر نجاحه فقط على الوصول إلى كرسيّ الحكم، وإنما يتمثل نجاحه الحقيقي في قدرته على اختيار رجاله ومعاونيه، الذين يعتمد عليهم، في تسييره لأمور الدولة في مختلف المجالات من عسكرية، وسياسية، وإدارية، وغيرها، ومن هؤلاء الرجال الذين اعتمد عليهم صلاح الدين الفقهاء الذين شغلوا أعلى مناصب في الدولة، فكان منهم الأمير في الجيش، وكاتب الديوان، والقاضي، والمحتسب، والمدرس، والخطيب.

وإذا كان صلاح الدين، قد حارب خصومه في الداخل والخارج بالسيف وغيره من أدوات القتال، فإن الفقهاء حاربوا الأعداء بأقلامهم وألسنتهم، عن طريق عملهم في القضاء، وتدريسهم في المدارس، ووعظهم الناس في المساجد والخانقات، فأدّوا دوراً هاماً في كشف زيف وبطلان مذهب الفاطميين، وفي إذكاء روح الجهاد في نفوس الجماهير، مما جعلهم يداً واحدة حول صلاح الدين، فمكنه ذلك من تحقيق انتصاراته الخالدة على الصليبيين.

وفي بداية تسلم صلاح الدين للوزارة من قبل الخليفة الفاطمي العاضد (ت:٥٦٧هـ)، أدى الفقهاء وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكّاري (ت:٥٨٩هـ) دوراً كبيراً في إقناع كبار

---

(١) ابن واصل، «مفرج الكروب»: (١/١٩٨).

(٢) نعمان الطيب سليمان، «منهج صلاح الدين في الحكم»: (ص٤٥٨).

الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين، أن يدخلوا في طاعته[1]، وكان لهذا الدور الأثر الكبير في تثبيت قدم صلاح الدين في الحكم.

كما كان للفقيه زين الدين بن النجا (ت: ٦٠٠هـ) أيضاً، دوراً مهماً في ترسيخ ملك صلاح الدين في مصر، حيث يعود الفضل إليه في كشف المؤامرة الكبيرة التي تزعمها عمارة اليمني (ت:٥٦٩هـ)، والتي استهدفت قتل صلاح الدين وأنصاره، وإعادة الدولة الفاطمية بالتعاون مع الصليبيين والحشيشية الإسماعيلية في الشام[2].

فلا غرابة إذن، أن يولي صلاح الدين الفقهاء اهتماماً كبيراً، وأن يجعلهم موضع رعايته وعنايته، فحفظ لهم جميلهم، ووثق بهم، وقربهم إليه.

ولكن ليس هذا هو السبب المباشر لذلك الاهتمام، وإنما يرجع السبب إلى أن صلاح الدين نفسه كان لديه إطلاع واسع على الفقه الشافعي، حيث كان يحفظ كتاب التنبيه، بالإضافة إلى أنه كان متديناً ورعاً، تقياً، زاهداً، محافظاً على تأدية صلاة الجماعة في وقتها[3]، إلى غير ذلك من الصفات الحسنة التي رُبي عليها، ويجب أن لا ننسى، أنه أدرك الدور الخطير الذي يمكن أن يقوم به الفقهاء من حيث قدرتهم على كسب الرأي العام وتحريكه نحو الجهة التي يريدها.

وإدراكاً منه لدور الفقهاء الهام في المجتمع، اهتم بهم اهتماماً كبيراً، وأفاض عليهم من نعمه وإحسانه، وأغدق عليهم الهبات والأعطيات، يدل على ذلك أن العلماء في دولته، كان لهم إقطاعات، وراتب يقارب الثلاثمائة ألف دينار[4].

---

(١) أبو شامة، «الروضتين»: (٤٠٧/٢/١).

(٢) ابن واصل، «مفرج الكروب»: (٢٤٤/١).

(٣) أبو شامة، «الروضتين»: (٥٣٣،٢١٩،٢١٨/٢/١).

(٤) المصدر نفسه: (١٢٥/٢).

كما قام بتقريب الفقهاء إليه فأحضرهم مجالسه، وكان يحسن الاستماع إليهم ويناقشهم في كثير من المسائل[1]، وليس هذا بالأمر المستغرب إذا عرفنا أنه كان ذا ثقافة دينية واسعة، حيث حفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالمذهب الشافعي.

ومن مظاهر اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أيضاً، أنه كان كثير الاستشارة لكبارهم، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد أخذ رأيهم فيه، ويأتي في طليعة كبار العلماء الذين كان يستشيرهم: كاتب ديوانه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (ت:٥٩٦هـ) يقول فيه صلاح الدين: «لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل»[2]، ويقول أبو شامة في استشارة صلاح الدين الدائمة للقاضي الفاضل: «...وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه»[3].

وبلغ من اعتماد صلاح الدين على رأي القاضي أنه في سنة (٥٨٨هـ)، عندما نوى تأدية فريضة الحج، استشار القاضي الفاضل، فأشار عليه بعدم الخروج للحج خوفاً من رجوع الصليبيين إلى القدس، وكان صلاح الدين قد حررها من أيديهم[4]، وبالفعل، فقد أخذ برأي القاضي الفاضل ولم يحج.

ومن بين العلماء الذين أكثر صلاح الدين من استشارتهم: الفقيه زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا، الذي كان له الفضل -كما أشرنا- في كشف مؤامرة عمارة اليمني، فقد

---

(١) الذهبي، «سير أعلام النبلاء»، (١٤م)، تحقيق بشار عواد، ومحيي هلال السرحان، (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٩٨٤م): (٢١/٢٨٢).

(٢) ماجد عرسان الكيلاني، «هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس»، (ط١)، الدار السعودية، جدة، (١٩٨٥م): (ص٢٢٤)، نقلاً عن ابن الأثير، البداية والنهاية: (١٣/٢٤).

(٣) أبو شامة، «الروضتين»: (٢/١٢٥).

(٤) المصدر نفسه: (٢/٢٠٥).

جعله صلاح الدين من كبار مستشاريه، وكان يسميه: عمرو بن العاص، بسبب دهائه وحسن حيلته، وكان كثيراً ما يأخذ برأيه لسداده[1]. ويقول فيه أبو شامة (ت:٥٦٥هـ) ((كان للفقيه زين الدين بن نجا، منزلة عالية عند صلاح الدين، أحسن السلطان إليه بالأعطيات والإقطاعات، وكان السلطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته، وكريم سجيته))[2].

ومنهم أيضاً: الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد الهكّاري، الذي كان له الفضل -كما أشرنا- في اقناع كبار الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين الوزارة، في الدخول في طاعته، وكان لهذا الدور الأثر الكبير في تثبيت مركز صلاح الدين، حيث جاء في الساعات الأولى لتولي صلاح الدين الوزارة، ويبدو أن صلاح الدين لم ينس له هذا الجميل، لذلك قربه إليه، وأكرمه إكراماً وكان كثير الاستشارة له[3].

وبلغ من اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أنه كان شديد الحرص على حضور دروس الفقهاء الوعظية، وكان في كثير من الأحيان يصحب أبناءه معه لسماعها، ولا سيما دروس الفقيه الزاهد زين الدين بن نجا[4]، ودروس الشيخ أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف التنوخي[5]، كما حرص صلاح الدين على حضور مجالس المحدّثين، يقول أبو شامة: ((وكان يسمع الحديث بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي))[6]، وفي أثناء زيارته

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني، ((هكذا ظهر جيل صلاح الدين)): (ص٢٤٤).

(٢) أبو شامة، ((الروضتين)): (٢/٥٨).

(٣) أحمد بن محمود بن خلكان (ت٦٨١هـ)، ((وفيات الأعيان وأبناء الزمان))، (٨م)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٨٥م): (٢/٤٩٧).

(٤) ماجد عرسان الكيلاني، ((هكذا ظهر جيل صلاح الدين))، ص ٢٤٥، نقلاً عن ((مرآة الزمان)) لسبط ابن الجوزي: (ص٥١٥).

(٥) أبو شامة، ((الروضتين)): (١/٢/٦٦٧).

(٦) المصدر نفسه: (٢/٢٠٥).

للاسكندرية سمع (الموطأ) على العالم أبي ظاهر أحمد بن محمد السِّلفي(ت:٥٩٧هـ)[١].

وممّا يدل على اهتمام صلاح الدين بالفقهاء، أنه كان يقوم بزيارتهم في بيوتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها: أنه عندما قدم إلى دمشق سنة (٥٧١هـ). قام بزيارة القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري(ت:٥٧٣هـ) في منزله، وأزال ما كان بينهما من سوء تفاهم قديم يرجع إلى أثناء إقامة صلاح الدين في دمشق قبل رحيله إلى مصر، وقام بتثبيته قاضياً لدمشق ونواحيها[٢]، ومن جملة الحديث الذي دار بينهما خلال تلك الزيارة، قول صلاح الدين للقاضي الشهرزوري: «..ما مشيت إلا لأُزيل ما في خاطرك من الوهم، وأُعرّفك أن ما في قلبي لك نكرة، فَطِب نفساً، وقَرّ عيناً، فالأمر أمرك، والبلد بلدك»[٣].

ولعمري هذه هي أخلاق العظماء من بني البشر، يحلمون عند المقدرة، بل ويتبعون الحلم الإحسان، وبذلك يجعلون من ألدّ الأعداء أصدقاء مخلصين، وهذه الحادثة إن دلّت على شيء، فإنما تدل على أن صلاح الدين كان ذا نفسية صافية لا تعرف الحقد ولا البغض ولا الكراهية، وأن قلبه كان عامراً بالإيمان والتقوى وخشية الله سبحانه.

وفي سنة (٥٨٤هـ) عندما ترك صلاح الدين (حلب)، سار إلى المعرّة، وهناك قام بزيارة للفقيه الزاهد أبي زكريا المغربي في بيته[٤].

ولشدة ثقة صلاح الدين بالفقهاء، كان يتخير رسله ومبعوثيه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والأمراء من الفقهاء، ممن اشتهر بسعة العلم، وحصافة الرأي، فقد قام صلاح

---

(١) المقريزي، «المواعظ والاعتبار»: (٢/٢٣٤)، وابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة»: (٦/١١٥).
(٢) أبو شامة، «الروضتين»: (١/٢/٦٧١).
(٣) ابن واصل، «مفرج الكروب»: (٢/٢٠).
(٤) أبو شامة، «الروضتين»: (٢/١٣٤).

الدين بإرسال وفد برئاسة الفقيه شمس الدين ابن أبي المضاء إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (ت:٥٧٥هـ)، وحمّله رسالة تتضمن إعلام الخليفة العباسي بعودة الخطبة باسمه في مصر، وفيها أيضاً يلتمس من الخليفة أن يقلده البلاد التي يحكمها وكل ما يفتحه من بلاد[١]، وقد نجح ابن أبي المضاء في مهمته، وترتب على هذه المهمة أن قام الخليفة بإرسال الخلع العباسية إلى صلاح الدين، وكتاب تقليد له بالبلاد التي يحكمها.

كما أرسل الفقيه عيسى الهكّاري إلى الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وحمّله رسالة، يعتذر فيها لنور الدين عن تركه لمحاصرة قلعة الكرك[٢]، وقد نجح الهكّاري في مهمته، حيث أن نور الدين زال ما في نفسه، من شكوك وظنون ساورته حول إخلاص صلاح الدين له.

ومما يدلنا أيضا، على تقدير صلاح الدين للفقهاء وحبه لهم، أنه كان عندما يدخل الفقيه إلى مجلسه يستقبله أجمل استقبال، ويجلسه إلى جانبه، كأنه أعزُّ الناس إليه[٣].

وصلاح الدين، في الهبات والأعطيات الكثيرة التي كان يمنحها الفقهاء، كان يرى أن ذلك حق لهم في بيت المال، وليس منّة مِنْه. يقول: ((إن هؤلاء -الفقهاء- لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منّا ببعض، فلهم المنّة علينا))[٤].

وأخيراً فالفقهاء أحبّوه كما أحبّهم، ووقفوا إلى جانبه، ونصروه ولم يخذلوه، وبلغ من درجة حبهم له، أنه عندما مات، أرادوا أن يحملوه على أعناقهم[٥].

---

(١) ابن واصل ((مفرج الكروب)): (٢/٢٠).

(٢) ابن الأثير، ((الكامل في التاريخ)): (١١/٢٩٣).

(٣) أبو شامة، ((الروضتين)): (١/٢٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن العماد، ((شذرات الذهب)): (٤/٢٩٩).

والتقى صلاح السلطان مع صلاح العلماء، فكان صلاح المجتمع، وكانت الانتصارات الخالدة، التي تزهو بها أجيال المسلمين على مرِّ العصور. فهل نعتبر؟

بغضه للفلسفه

ومع كل هذا الاهتمام والتقدير للفقهاء، إلا أنه كان لا يُمكّن أحداً منهم من اظهار ما يخالف مذهب أهل السنّة، ولا سيما في أمور العقيدة ويصفه أبو شامة بأنه ((كان مبغضاً للفلاسفة والمعطّلة والدهرية، ومن يعاند الشريعة))[1].

وخير دليل على بغضه وكراهيته للفلسفة والمنتسبين إليها، وأنه كان يؤدّب أصحاب البدع وأهل الزندقة، أنه في عام (٥٨٧ هـ) أوعز إلى إبنه الملك الظاهر غازي (ت٦١٣هـ) حاكم حلب، بقتل العالم والفيلسوف أبي الفتح يحيى بن حبش السُهْرَوَرْدي (ت٥٨٧هـ)[2]، وذلك بعد أن أقنعه الفقهاء بضرورة التخلص منه، وإفتائهم بإباحة دمه، خوفاً على المسلمين من أن يُفسد عليهم عقيدتهم بآرائه الفلسفية التي تمس الذات الإلهية، ومنعاً لحصول الفتن[3].

ويحلو لبعض المفكرين المعاصرين[4]. أن يصوِّر مقتل السُهْرَوَرْدي، أنه أحد أخطاء

---

(١) المصدر نفسه: (٢/٢١٩).

(٢) ((ولد في سُهرورد في شمال غرب إيران، ثم انتقل إلى مراغة، ومنها إلى أصبهان، ثم إلى بلاد الأناضول وديار بكر، وأخيراً استقر به المقام في حلب، أشهر شيوخه، مجد الدين الجيلي، وظهير الدين القادي، وفخر الدين المارديني (ت٥٩٤هـ)، كان شديد الذكاء فصيحاً، بارعاً في الجدال، انضم إلى جماعات الصوفية، وأحب الوحدة، عرف عنه كثرة تهوره واستهتاره، وعدم اكتراثه بالأعراف والاعتبارات الاجتماعية))، عرفان عبد الحميد فتاح ((نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها))، ط١، دار الجيل، بيروت (١٩٩٣م): (ص ٢٣٣-٢٣٥).

(٣) المصدر نفسه: (٢/٢١٩).

(٤) يقول محمد كرد علي: ((...وربما كانت هذه الغلطة الفظيعة الوحيدة التي عدت على صلاح الدين، لأنه بقتله قتل الحكمة، ومنذ أهملت العلوم الفلسفية في الإسلام، أخذ مستوى العقل في علماء المسلمين يضعف)) ويقول محمد سيد كيلاني: ((منذ هذه الفترة، اختفى التفكير الحر من الوجود، فأصيبت العقول بالجمود، واستبدت بها الأوهام))، نعمان سليمان، ((منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة)): (ص ٥٢٠).

صلاح الدين الفادحة التي لا تغتفر، والتي جنت على الفكر الإسلامي جناية كبيرة، فأماتت فيه روح التفكير. فضعف مستوى العقل واعتراه الجمود، وسيطرت عليه الأوهام.

إن هذا الزعم فيه تجنٍّ واضح على صلاح الدين، الذي لم يُقدم على الأمر بقتل السُهْرَوَرْدي، الا بعد أن أفتى جميع فقهاء حلب بوجوب قتله. وذلك لأنه في فلسفته مزج بين الحكمة اليونانية وديانات الفرس من مزدكية ومانوية ومذاهب الصابئة في الكواكب والنجوم. كما كان يعتقد بأن النبوة لا تنتهي، وأنها ضرورية من وقت لآخر، فهو ينكر أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين[1]. كما يرى أن الولي المتأله (الإمام) الذي اجتمعت له الحكمة البحثية والتجربة الصوفية يكون خير وافضل من النبي[2]. بالإضافة الى ذلك، كان يقول: إن الله يملك إن شاء إن يخلق نبياً، وسمّى نفسه المؤيد بالملكوت[3].

لذلك رماه فقهاء حلب بالزندقة والإلحاد، وكتبوا الى صلاح الدين، وحذروه من فساد عقائد الناس اذا أبقى عليه. فما كان من صلاح الدين، بعد ان ثبت لديه كفر السُهْرَوَرْدي، إلى أن كتب كتاباً إلى ابنه الظاهر يأمره فيه بقتل السُهْرَوَرْدي.

ثم إنه لو لم يقتله لحدثت فتنة كبيرة، بين أنصار السُهْرَوَرْدي وخصومه ممن يعتنقون مذهب أهل السنّة عقيدة وفقهاً، تؤدي إلى إزهاق أرواح كثيرة، فينعكس اثر هذه الفتنة على تماسك الجبهة الداخلية، التي كان صلاح الدين حريصاً أشد الحرص، على ان تبقى قوية ومتماسكة، وموحّدة، لتحقيق أسمى أُمنياته، وأمنيات المسلمين، بطرد الصليبيين من

---

(١) عرفان عبد الحميد، «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها»: (ص٢٣٨)، وطلعت غنام، الفلسفة الإسلامية، نشأتها وتطورها ورجالها: (ص٥٨).

(٢) ماجد فخري، «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت (١٩٧٤م)، (ص ٤٠٤)، وعرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها: (ص٢٣٦).

(٣) محمد علي أبوريان، «تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام» – المقدمات، علم الكلام، الفلسفة الإسلامية، (ط٢)، دار النهضة العربية، بيروت (١٩٧٣م): (ص٤٠٩).

بلاد الشام، الذين شكّلوا أكبر خطر هدّد الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت.

ولا مجال في مثل هذه الظروف الصعبة والقاسية، لإفساح المجال أمام المناقشات الفلسفية التي تؤدي إلى تشويش الأفكار وتشتتها[1].

ولا شك في أن صلاح الدين قد رآى في التخلّص من السُهْرَوَرْدي، تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا أمر يتحتّم العمل به، فلأن تزهق روح واحدة أولى من أن تزهق أرواح كثيرة، وأولى من أن يُمَسّ الدين بسوء، وتتعطل أحكامه، وأي حاكم كان مكانه لا بد أن يفعل مثله.

وربما كان الدافع لقتل السُهْرَوَرْدي، هو أن صلاح الدين خشي على ولده غازي، أن يُفتن بأفكار وآراء السُهْرَوَرْدي، وهذا لو تمّ، فإنه لا شك، سيؤدي إلى حدوث انقسام في البيت الأيوبي، وهذا مما لا يسمح به صلاح الدين، لما يترتب عليه من أخطار، تؤدي إلى ضياع الجهود التي بذلها من اجل بناء مملكة موحّدة وقوية.

يضاف الى ذلك ان السُهْرَوَرْدي في فلسفته كان متأثراً بالمذهب الإسماعيلي الذي يقول: إنّ أولاد علي بن ابي طالب هم صور للتجلي الإلهي؛ لذلك اعتبره صلاح الدين ثائراً سياسياً يسعى للقضاء على حكمه[2] لذلك أوعز بقتله.

وانه لأمر في منتهى الغرابة، بعد العدد الكبير من المدارس والمساجد والخانقات التي بناها صلاح الدين، واهتمامه بالعلم والعلماء وبعثه نهضة علمية وثقافية واسعة في كل من مصر والشام، أن يُنسب إليه أنه قتل الفكر، وكان سبباً في جموده!

---

(١) نعمان سليمان، «منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم»: (ص ٥٢١).

(٢) عرفان عبد الحميد فتاح، «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها»: (ص ٢٤٥).

أثر صلاح الدين في تنشيط المذهب السنّي في بغداد:

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تأثير صلاح الدين في بعث المذهب السنّي، لم يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل امتد الى الحجاز واليمن اللذين فُتحا في السنوات الأولى من حكمه، بقيادة أخيه شمس الدولة تورنشاه (ت٥٧٦هـ)[١]، الذي أعاد هذه البلاد إلى سلطة الخلافة العبّاسية الروحية، حيث أمر بأن يخطب في أيام الجُمع للخليفة العباسي، واقتفى نهج أخيه في محاربة المذهب الشيعي.

كما أن تأثير صلاح الدين في إحياء مذهب أهل السنّة، وصل إلى بغداد نفسها عاصمة الخلافة العباسية، فنجد خلال الفترة التي حكم بها، أنّ الخلافة العباسية بفضله، قد نُفخت فيها روح جديدة، فأكسبتها نشاطاً وقوة لم تألفها منذ فترة طويلة ترجع الى وفاة الخليفة المعتصم (ت٢٢٧هـ). حيث أصبح وجود الخلافة وجوداً حقيقياً، بعد أن كان صورياً، وصار للخليفة هيبة، ومارس صلاحياته بشكل فعال.

وأصبح بمقدور الخليفة أن يعزل أكبر المتنفذين في القصر من وزراء وكتاب ديوان و غيرهم، يدل على ذلك ان الخليفة المستضيء بنور الله، استطاع ان يتخلص من قطب الدين قايماز (ت٥٧٠هـ)[٢]، وفي العام الذي يليه تمكن من عزل عماد الدين صندل المقتفوي عن الاستادارية، وولّى مكانه ابن الصاحب هبة الله بن علي[٣].

وآخر خليفة عاصره صلاح الدين، هو الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) الذي خلف المستضيء، كان أيضاً يتمتع بشخصية قوية، وكانت له هيبة وكانت سيطرته على الأمور

---

(١) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ»: (٣٩٦/١١).

(٢) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ»: (٤٣٤/١١).

(٣) ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة»: (٧٦/٦).

أكثر من سابقه. يقول فيه السيوطي:((كان الناصر قد ملأ القلوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الأقطار، فأحيا بهيبته الخلافة...))[1]، وبلغ من تمكّنه من السلطة، أن أمر بقتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب (ت٥٨٣هـ)، وهذا أستاذ دار الخلافة الذي كان متحكماً في أمور الدولة[2].

وكان أمراً طبيعياً، أن يرافق ازدياد قوة الخلافة، ازدياد قوة المذهب الذي تعتقده وتتبناه وهو المذهب السنّي، وأن يضعف المذهب المنافس لمذهبها، وهو المذهب الشيعي.

ففي عهد الخليفتين السابقين اللذين عاصرهما صلاح الدين، نجد انحساراً ملحوظاً للمد الشيعي، يدل على ذلك قول الذهبي (ت٧٤٨هـ): ((وفي أيامه -المستضيء بنور الله- اختفى الرفض ببغداد ووهى، وأما بمصر والشام فتلاشى))[3]. كما أنه في عهد الناصر لدين الله، تعرّض الشيعة لمضايقات كثيرة، فضعفت شوكتهم، وقوي نفوذ المذهب السنّي[4].

وخلاصة القول، أن صلاح الدين، كان له الفضل الكبير في بعث ونشر مذهب أهل السنّة فقهاً وعقيدة في أغلب البلاد العربية، لاهتمامه الزائد بالفقهاء والإكثار من إنشاء المدارس. ورسم الطريق لمن بعده في كيفية المحافظة على أن تبقى راية الإسلام مرفوعة، وفي كيفية المحافظة على أن يظلّ الدين الإسلامي نقياً خالياً من الشوائب والبدع والهرطقة.

---

(١) جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، ((تاريخ الخلفاء))، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: (ص٤٥٠).

(٢) ابن الأثير، ((الكامل في التاريخ)): (٥٦٢/١١).

(٣) الذهبي، ((العبر في خبر من غبر)): (٦٧/٣)، والسيوطي، ((تاريخ الخلفاء)): (ص٥٤٥).

(٤) الذهبي، المصدر نفسه: (ص٣٥).

الخاتمة

ظهر صلاح الدين الأيوبي، في عصر كانت فيه الأمة العربية في وضع لا تُحسد عليه، من تمزق وضعف، يتهددها الخطر الصليبي، الذي كاد أن يأتي عليها، واستطاع بما تمتع به من عبقرية فذّة، وميزات قيادية هائلة، أن يجمع شتات هذه الأمة، ويكون قوة كبيرة، استطاع بفضلها أن يحقق انتصاراته على الصليبيين، تلك الانتصارات التي جعلته من الخالدين في التاريخ الإسلامي، وقلّ من كان يضاهيه من حيث التنزه عن الأهواء والمطامع الشخصية، ومن حيث العمل على تقديم الخدمات التي من شأنها أن تُسعد الأمة وتنهض بها.

لم يكن صلاح الدين قائداً عسكرياً بارعاً في فنون القتال فحسب، وإنما كان أيضاً سياسياً ماهراً، استطاع أن يحظى بثقة الخليفة الفاطمي[1]، رغم العداء المذهبي بينهما، وظلّ على وفاق مع سيده نور الدين زنكي، مطيعاً له، رغم استفزازات نور الدين له[2]، كما حصل على ثقة الخليفة العباسي، وبقي محافظاً عليها حتى آخر لحظة من عمره، تلك الثقة التي أضفت على حكمه صبغة شرعية، مما جعل الجميع يُقرّ له بالسيادة، والولاء والتبجيل، والاحترام.

ويمكننا إجمال ما كشفت عنه الدراسة من نتائج، فيما يلي:

١. إن صلاح الدين كان باعث نهضة فكرية وعلمية كبيرة، انبثقت عن دُور العلم

---

(١) وفاء علي محمد، «قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام»: (ص٤٥).

(٢) يقول صلاح الدين بعد وفاة نور الدين: «والله لقد صبرت منه على مثل حزّ المدي ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه، أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً، أن يجد لي هفوة يعتدها عليّ فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي يُصبر على مثلها، لعلّي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي، فما أبلغته إربه يوماً قط». أبو شامة، الروضتين: (١/١/٤٤٢).

الكثيرة التي شيدها، مما كان له اثر في استقطاب كثير من العلماء من مختلف البلدان الإسلامية. كما أن هذه المدارس عملت على تثقيف الناس وتقوية العقيدة في نفوسهم، فأسهمت في تحقيق شيء من الوحدة الفكرية، مما كان له اثر كبير في بناء مجتمع قوي ومتماسك، استطاع أن يتغلب على ما كان يتهدده من أخطار داخلية وعقيدة نقية راسخة في نفوس أبنائها.

٢. المدارس التي شيّدت في عهده، كانت في أغلبها ضخمة وواسعة، تتوفر فيها جميع وسائل الراحة، كما أن المدرسين فيها كانوا يتقاضون رواتب عالية، وأن التدريس فيها كان على مذاهب أهل السنّة.

٣. بسقوط الدولة الفاطمية، خسر المذهب الشيعي سنده الكبير، فأُبعد من مركز الصدارة ليأخذ مرتبة دنيا، فأخذت الصدارة مذاهب اهل السُنّة، ولا سيما المذهب الشافعي. ولذلك يمكننا أن نطلق على صلاح الدين لقب ناصر المذهب السُنّي. كما ترتب على زوال الخلافة الفاطمية، أن فقد الجامع الأزهر درجته الأولى بين جوامع القاهرة.

٤. إن صلاح الدين كان صاحب ثقافة دينية واسعة، اهتم بالعلماء وقرّبهم إليه، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورتهم.

٥. لم يكن صلاح الدين يتساهل في أيّ مسألة لها مساس بجوهر عقيدة أهل السنّة، لذلك حارب الفلاسفة والمبتدعة، ولم يتهاون معهم.

٦. تأثير صلاح الدين في بعث المذهب السنّي لم يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل شمل الحجاز واليمن والعراق.

وأخيراً فسيرة صلاح الدين الايوبي، ستظلّ معيناً لا ينضب لأقلام الباحثين والدارسين، تمدهم بأمثلة حية، من آيات البطولة، والمجد، والفخار.

وحري بنا أن نستطلع تاريخ العظماء مـن أمتنـا لنـأخذ منـه الـدروس والعـبر، في كيفيـة مواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه أمتنا، فنعمل على توحيد كلمتنا، مـن أجـل مقاومـة الأخطار المتزايدة، التي تستهدف وجودنا وكياننا.

وأضرع إلى العلي القدير، أن يُهيئ لهذه الأُمّة صلاحاً آخر، يعمل على توحيـد صفوفهـا وينقذها من هذه المصائب المتوالية عليها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

